

مبشرات من التاريخ

ولا تقف المبشرات بانتصار الإسلام عند النصوص القرآنية والحديثية المتوافرة ، والتي تملأ القلب يقيناً بأن الغد لهذا الدين العظيم . بل إننا نجد فى وقائع التاريخ وأحداث الماضى : ما يعمر قلوبنا بالثقة والأمل فى مستقبله ، برغم ما يقف فى سبيله اليوم من عقبات ، وما يعوق صحوته من عوائق هائلة ، بعضها من صنع أعدائه فى الخارج وأخرى من صنع خصومه فى الداخل ، وأعجب شئ أن يكون هؤلاء الخصوم أو أكثرهم ممن يحملون اسم الإسلام ، ولكنهم - فى الحقيقة - قد انضموا إلى صفوف محاربيه ، فلا يريدون للشريعة أن تحكم ، ولا لقيمه أن تسود ، ولا لكلمته أن تكون هى العليا .

* *

● حقيقتان كبيرتان من التاريخ :

وحسبنا من مبشرات التاريخ عامة ، وتاريخنا خاصة - الذى يبدأ بسيرة النبى ﷺ - : حقيقتان كبيرتان فى غاية الأهمية فى موضوعنا الذى نبثه .

* *

● نزول النصر أحوج ما نكون إليه :

الحقيقة الأولى : أن النصر لا يأتي من عند الله إلا عندما يكون الناس أحوج شيء إليه ، وعندما يبرأ الناس من حولهم وقوتهم ، ويلوذون بحول الله تعالى وقوته ، وعندما تغلق الأبواب في وجوههم إلا بابه ، وتنقطع الأسباب دونهم إلا أسبابه ، هناك يدعون دعاء المضطرين ، ويلجئون إليه لجوء المفتقرين . وهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه ، ولا يخيب من افتقر إليه ورجاه .

رأينا ذلك في هجرة النبي ﷺ ، وقد لجأ إلى الغار ، فاختفى فيه هو وصاحبه أبو بكر ، وقد بحث المشركون عنهما حتى وصلوا إلى باب الغار ، وقال أبو بكر مشفقاً على صاحبه وعلى دعوته : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ! فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » .

وقد قص علينا القرآن كيف نصر الله رسوله في ذلك اليوم ، وبأى جند نصره . يقول تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

ورأينا ذلك النصر فى يوم بدر ، وقد كان المسلمون أقل من المشركين عدداً (كانوا أقل من ثلثهم) وأضعف عدداً (كان مع المسلمين فرسان ، ومع المشركين مائة فرس) وأضعف استعداداً وتهيؤاً للحرب من الناحية النفسية ، فقد خرجوا من بيوتهم للغير لا للنفير ، فلم يكن القتال فى نيتهم ، وفى هذا يقول القرآن :

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿ (١) .

ومع هذا كان النصر للمؤمنين ، حين استغاثوا بالله فأغاثهم :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ ﴾ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ (٢) ، وكان الرسول ﷺ يدعو ربه فى ذلك اليوم ، ويلح فى الدعاء ، يقول :

« اللهم أنجز لى ما دعوت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض بعد اليوم » !! وما زال يدعو حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وأبو بكر يقول له : والله يا رسول الله لينصرك الله ، وليبيضن وجهك !

(٢) الأنفال : ٩ ، ١٠

(١) الأنفال : ٥ ، ٦

لقد كانت يد الله الواحد القهار هى التى تدير المعركة من فوق سبع سموات ، هو الذى رتبها ، وهىأ مكانها وزمانها : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

كانت يد القدر الأعلى وراء يد النبى ﷺ حين رمى بحفنة من الرمل فى وجوه القوم ، وكانت وراء أيدى المؤمنين ، وهى تقتل المشركين كما قال تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (٢) .

ومن هنا امتن الله على رسوله وعلى المؤمنين بنصرهم فى بدر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

ورأينا ذلك النصر فى يوم الخندق ، وقد اشتد الكرب على المسلمين ، حين غزاهم المشركون فى عقر دارهم ، وحاصروهم حصاراً شديداً ، وحفروا الخندق ليحميهم من هجومهم ، وغدر بهم اليهود وانضموا إلى المهاجمين . وقد وصف القرآن حال

(١) الأنفال : ٤٢ (٢) الأنفال : ١٧ (٣) آل عمران : ١٢٣

المسلمين المادية والنفسية في هذا الوقت العصيب فقال : ﴿ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١) .

وقد كشف المنافقون عن أقنعتهم ، وقال منهم ما قال : مما سجله عليهم القرآن :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٢) .

في هذه المحنة الخائفة ، وفي تلك الظروف الحالكة ، جاء نصر الله تعالى ، كما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٣) .

وقال أيضًا : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (٤) .

(٢) الأحزاب : ١٢ ، ١٣

(٤) الأحزاب : ٢٥

(١) الأحزاب : ١٠ ، ١١

(٣) الأحزاب : ٩

وفى غزوة حُنين ، كان المسلمون جيشاً كبيراً ، وقد فتحوا مكة ، وانتصروا على قريش فغرتهم كثرتهم ، واعتزوا بعددهم ، فلقنهم الله درساً بليغاً حتى يفيقوا ، ويعلموا أن النصر من عند الله ، ومن لم ينصره الله فهو مغلوب ، ومن نصره الله فلن يغلب أبداً .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى ينتزل على عباده المؤمنين ، حين تضيق بهم الحيل ، وتخذلهم أسباب الأرض ، فيمدون أكفهم إلى السماء .

وهذا أمر ثابت فى تاريخ الرسالات كلها ، وفى تاريخ الرسل جميعاً ، كما بين ذلك القرآن فى قوله فى أواخر سورة يوسف : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مِنْ نَشَاءٍ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) .

* *

● قوة الأمة عند الشدائد :

والحقيقة الثانية التى عرفناها من تاريخنا : هو المخزون النفسى والروحى الكبير ، الذى تدخره الأمة ، ولا يبرز إلا فى المحن والخطوب .

إن التاريخ يحدثنا أن فى الإسلام (قوة ذاتية) مخبوءة ، لا تبرز إلا عند حلول الشدائد بساحته ، وإحاطة المحن بأمته . فهناك نراه أصلب ما يكون عوداً ، وأعظم ما يكون صموداً ، وأشد ما يكون قوة ، وأقدر ما يكون على تفجير الطاقات المكنونة لأمته ، وإبراز ما خبئ من قوته وقدرته ، فإذا هو يقاوم فيصمد ، بل يغالب فيغلب ، وإذا الضعف الظاهر الذى أطمع الناس قد استحال إلى قوة ، بل إلى قوة قاهرة منتصرة .

رأينا ذلك فى فجر تاريخ الإسلام : فى يوم بدر ، حيث انتصرت القلة على الكثرة ، والضعف المادى على القوة ، وامتن الله على المؤمنين بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ

(١) آل عمران : ١٢٣

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾



● في حروب الردة :

ورأينا ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وقد ارتدت قبائل العرب - فيما عدا المدينة ومكة والطائف - وظهر أدعياء النبوة الكذبة من كهنة العرب ، وتبعهم قبائلهم عصبية لهم ، على حد قولهم : كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! فكان مسيلمة وسجاح والأسود العنسي وطلحة الأسدي ، وغيرهم ، وانضم إليهم مانعو الزكاة ، الذين أقروا بالصلاة ولم يقرؤوا بالزكاة ، وكانت فتنة عارمة ، ومحنة قاسية ، جعلت بعض الصحابة يقول لأبي بكر : يا خليفة رسول الله ؛ لا طاقة لك بحرب العرب جميعاً ، الزم بيتك ، وأغلق بابك ، واعبد ربك ، حتى يأتيك اليقين !!

ولكن أبا بكر الرجل الرقيق البكاء أبى أن يستسلم ، وثبت كالطود ، وزأر كالليث ، وجهز أحد عشر جيشاً لحرب المرتدين ومانعي الزكاة ، ولما ناقشه عمر في مقاتلة ما نعى الزكاة . وقد قال النبي ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . وهنا قال له أبو بكر فى يقين وقوة : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً (عترة صغيرة) - وفى رواية : عقلاً - كانوا يؤدونه لرسول الله لقائتھم عليه .

وقامت معارك بين الصحابة - على قلتهم - وبين المرتدين ومانعى الزكاة على كثرتهم - انتهت بانتصار المؤمنين على المارقين الذين رجعوا إلى حظيرة الإسلام تائبين مستغفرين ، مكفرين عن ردتهم بالانضمام إلى صفوف المجاهدين فى قتال فارس والروم . وكانوا من أعظم الناس بلاء فيه ، يعوضون عما بدر منهم فى حق الإسلام .

وعادت جزيرة العرب حصناً ومعقلاً للإسلام ، على امتداد القرون .



● فى الحروب الصليبية :

وظهرت القوة الكامنة فى الإسلام مرة أخرى ، حين زحف عليه الغرب المسيحي بقضه وقضيضه ، وثالوثه وصلبيه ، فى تسع حملات شهيرة عرفت باسم (الحملات الصليبية) .

جاء الغرب الصليبي الزاحف يحمل فى صدره حقداً أسود على الإسلام وأهله ، وطمعاً فى خيرات بلاده ، وأملاً فى تحطيم قوته وميراث ملكه ، ساعده على ذلك غفلة المسلمين ، وغرق حكامهم فى الشهوات . وتفرقهم من أجل الدنيا ، وحرصهم على الإمارة ، واستعداد هؤلاء الأمراء التافهين أن يبيع أحدهم أخاه ويشتري الدخيل الغريب ، وأن يبيع أمته ويشتري إمارته .

فلا غرو أن ينتصر الصليبيون فى أول الأمر ، وأن يقيموا لهم ممالك وإمارات فى ديار الإسلام ، بالتعاون مع الخونة من الأمراء ، وأن يدخلوا بيت المقدس ، بعد مذبحه قتل فيها عشرات الألوف ، وجرت الدماء للركب .

وبقى الصليبيون فى الشام نحو مائتى عام ، وبقي بيت المقدس فى أيديهم تسعين سنة كاملة .

ثم هيا الله للإسلام رجالاً صمموا على أن يقاوموا العدوان ، وأن يستردوا الأرض المغتصبة ، ويستعيدوا الحق السليب ، فكان عماد الدين زنكى ، وابنه البطل نور الدين محمود الشهيد ، الذى كان يشبه بالخلفاء الراشدين فى سيرته وشجاعته والتزامه وعدله ، وتلميذه القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي ، الذى كتب الله له النصر على الصليبيين فى معركة (حطين) الشهيرة ، وفى معركة فتح بيت المقدس ، وإعادته إلى أمة الإسلام ، وكانت بعد ذلك

معارك فى مصر ، انتهت بأسر لويس التاسع فى (دار ابن لقمان)
بالمنصورة .

وكل هذا دليل على أن الأمة الإسلامية قد تنام ، وقد تمرض ،
ولكنها لا تموت ، ما دام يجرى فى عروق أبنائها دم العقيدة ، وما دام
فيها من يقودها بـ (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) .



● فى حروب التتار :

وكما تعرض الإسلام للغزو من الغرب على أيدي الصليبيين
الأوربيين النصارى ، تعرض للغزو من الشرق على أيدي التتار
الوثنيين . الذين هجموا على بلاد الإسلام كالريح العقيم ، ما تذر
من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

وقد ظهروا والمسلمون ضعفاء متفرقون ، ليس لهم قيادة قوية
تجمع صفوفهم ، ولا نهضة إيمانية توقظ شعوبهم ، والتتار كانوا فى
ذلك الزمن قوة عسكرية عاتية ، لها قيادة مهيبة مطاعة ، لا يقف فى
وجوههم أولئك الملوك الممزقون ، والأمراء المفرقون ، والولاة
المترفون ، فسقطت البلاد فى أيديهم بلداً بلداً ، وفر الأمراء من
أمامهم - أو خضعوا لهم - أميراً أميراً ، والنصر يغرى بالنصر ،
والظفر يدفع إلى الظفر ، حتى كان المثل السائر فى ذلك الزمان :

إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق ! إنها أسطورة (القوة التي لا تقهر) تتكرر ما بين عصر وآخر .

وأخيراً زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد دار السلام ، وأرقى بلاد الإسلام ، فسقطت تحت ضرباتهم وبمعونة من خان ممن ينتسبون إلى الإسلام ، وسالت الدماء أنهاراً ، وأسود نهر دجلة من كثرة ما ألقى فيه من كتب الحضارة ، التي سال مدادها ، حتى أحالت ماء النهر أسود حالكا .

ولم تكد تمضى سنوات ، حتى تحققت معجزة الإسلام مرتين : انتصر الإسلام على التتار عسكرياً ، في معركة من معارك التاريخ الحاسمة ، وهى معركة (عين جالوت) بقيادة القائد المملوكى الصالح سيف الدين قطز ، الذى حقق الله على يده النصر ، ومعه جنود مصر ، فى يوم من أيام الله فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، أى بعد سقوط بغداد بستين فقط .

وانتصر الإسلام مرة أخرى معنوياً ، فإذا هؤلاء الجبابرة الذين غزوا الإسلام يغزوهم الإسلام ، وإذا سيف الغازى المصلت يسقط أمام تأثير العقيدة الإسلامية العزلاء ، وإذا الغالبون يدخلون أخيراً فى دين المغلوبين !! على خلاف ما هو معروف ومألوف ، وهو ما قرره ابن خلدون أن المغلوب هو المولع دائماً بتقليد الغالب المنصور ..



● حروب التحرير فى العصر الحديث :

وفى العصر الحديث ، رأينا الجهاد البطولى ، ضد الغزاة المستعمرين ، فى سائر ديار الإسلام : جهاد الأمير عبد القادر الجزائرى ضد الفرنسيين فى الجزائر ، والأمير عبد الكريم الخطابى ضد الأسبان فى المغرب ، والبطل عمر المختار ضد الطليان فى ليبيا ، والشيخ عز الدين القسام ضد الإنجليز واليهود فى فلسطين ، مروراً بثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى ، ومعارك فلسطين ضد الصهاينة ، والقناة ضد الإنجليز .

كما اعترف المؤرخون الغربيون أنفسهم - أمثال برنارد لويس فى كتابه (الغرب والشرق الأوسط) - أن الحركات الدينية كانت هى قائدة معارك التحرير فى سائر البلاد الإسلامية ضد الاستعمار ، حتى حركة كمال أتاتورك نفسها ، ولكن المؤسف أن الإسلاميين يزعمون ، والعلمانيين هم الذين يحصدون ، إنهم لصوص مدربون على سرقة ثمار الجهاد وثورات المجاهدين !

